

تفسير ابن كثير

كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتقة وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين وكان من أهل بدر أيضاً وكان له بمكة أولاد ومال ولم يكن من قريش أنفسهم بل كان حلifaً لعثمان فلما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة لما نقص أهلها العهد فأمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بالتجهيز لغزوهم وقال [اللهم عم عليهم خبرنا] فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً وبعثه مع قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يداً فأططلع الله تعالى على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم استجابة لدعائهما فبعث في أثر المرأة فأخذ الكتاب منها وهذا بين في هذا الحديث المتفق على صحته .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن عمه أخبرني حسن بن علي أخبرني عبد الله بن أبي رافع وقال مرة إن عبيداً بن أبي رافع أخبره أنه سمع علياً يقول : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال [انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها طعينة معها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى أتيتنا الروضة فإذا نحن بالطعينة قلنا أخرجي الكتاب قالت : ما معك كتاب قلنا لتخرون الكتاب أو لتلقين الثياب قال : فأخرجت الكتاب من عقاصها فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتقة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا حاطب ما هذا ؟ قال : لا تجعل علي إني كنت أمرأ ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسهم وكان من معلم من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة فأحبت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه صدقكم] .

قال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إنه قد شهد بدرًا وما يدرك لعل الله أطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم] وهذا أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه من غير وجه عن سفيان بن عيينة به وزاد البخاري في كتاب المغازي : فأنزل الله السورة { يا أيها الذين آمنوا لا تخذلوا عدوكم وعدوكم أولياء } وقال في كتاب التفسير : قال عمرو ونزلت فيه { يا أيها الذين آمنوا لا تخذلوا عدوكم وعدوكم أولياء } وقال لا أدري الاية في الحديث أو قال عمرو قال البخاري قال علي يعني ابن المديني قيل لسفيان في هذا نزلت { لا تخذلوا عدوكم وعدوكم أولياء } فقال سفيان : هذا في

الحديث الناس حفظته من عمرو ما تركت منه حرفا ولا أدرى أحدا حفظه غيري .

وقد أخرجاه في الصحيحين من حديث حمدين بن عبد الرحمن عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا مرثد والزبير بن العوام وكلنا فارس وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلترة إلى المشركين فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا : الكتاب ؟ فقالت : ما معك كتاب فأخناها فالتمسنا فلم نر كتابا فقلنا ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم لتخرون الكتاب أو لنجردنك فلما رأي الجدأهوت إلى حجزتها وهي محتجزة بكساء فأخرجته فانطلقنا بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : يا رسول الله قد خانك ورسوله والمؤمنين فدعوني فأضرب عنقه فقال النبي ص : [ما حملك على ما صنعت ؟] قال حاطب : وآلا ما بي إلا أن أكون مؤمنا بما ورسوله أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع آلا بها عن أهلي ومالي وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع آلا به عن أهله وماله فقال : [صدق لا تقولوا له إلا خيرا] .

قال عمر : إنه قد خانك ورسوله والمؤمنين فدعوني فأضرب عنقه فقال : [أليس من أهل بدر ؟ – فقال – لعل آلا قد اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة – أو قد غفرت لكم] فدمعت عينا عمر وقال : آلا ورسوله أعلم هذا لفظ البخاري في المغازي في غزوة بدر وقد روي من وجه آخر عن علي قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسن الهسنجاني حدثنا عبيد بن يعيش حدثنا إسحاق بن سليمان الرازي عن أبي سنان هو سعيد بن سنان عن عمرو بن مرة الجملي عن أبي البحتري الطائي عن الحارث عن علي قال : لما أراد النبي ص أن يأتي مكة أسر إلى أناس من أصحابه أنه يريد مكة منهم حاطب بن أبي بلترة وأفشي في الناس أنه يريد خبر قال : فكتب حاطب بن أبي بلترة إلى أهل مكة أن رسول الله ص يريدكم فأخبر رسول الله ص قال فبعثني رسول الله ص وأبا مرثد وليس منا رجل إلا وعنه فرس فقال : [ائتوا روضة خاخ فإنكم ستلقون بها امرأة معها كتاب فخذوه منها] .

فانطلقنا حتى رأيناها بالمكان الذي ذكر رسول الله ص فقلنا لها هات الكتاب فقالت ما معك كتاب فوضعنها متاعها وفتشرناها فلم نجد في متاعها فقال أبو مرثد لعله أن لا يكون معها فقلت ما كذب رسول الله ص ولا كذبنا فقلنا لها لتخرنجه أو لنعرينك فقالت أما تتقون آلا ! ألستم مسلمين ! فقلنا لتخرنجه أو لنعرينك قال عمرو بن مرة فأخرجته من حجزتها وقال حبيب بن أبي ثابت : أخرجته من قبلها فأتينا به رسول الله ص فإذا الكتاب من حاطب بن أبي بلترة فقام عمر فقال يا رسول الله خانك ورسوله فائذن لي فأضرب عنقه فقال رسول الله ص : [أليس قد شهد بدر ؟ قالوا : بلى وقال عمر : بلى ولكنه قد نكث وظاهر أعدائك عليك فقال رسول الله ص : فعلل آلا اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم إنني بما تعملون بصير ففاضت عينا

عمر وقال : أَنَّ رَسُولَهُ أَعْلَمُ فَأَرْسَلَ رَسُولَهُ إِلَى حَاطِبٍ فَقَالَ : يَا حَاطِبُ مَا حَمَلْتَ عَلَى مَا صنعتَ ؟ فَقَالَ : يَا رَسُولَهُ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصِقاً فِي قُرَيْشٍ وَكَانَ لِي بِهَا مَالٌ وَأَهْلٌ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَصْحَابِكَ أَحَدٌ إِلَّا وَلَهُ بِمَكَةَ مِنْ يَمْنَعُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ فَكَتَبَتْ بِذَلِكَ إِلَيْهِمْ وَإِنَّ رَسُولَهُ إِنِّي لِمَؤْمِنٍ بِإِنَّ رَسُولَهُ فَقَالَ رَسُولُهُ إِنَّهُ صَدُقٌ حَاطِبٌ فَلَا تَقُولُوا لِحَاطِبٍ إِلَّا خَيْرًا [قال حبيب بن أبي ثابت : فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَخَذُوا عُدُوِّي وَعُدُوِّكُمْ أُولَيَاءَ تَلَقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوْدَةِ } الْأَيْةُ وَهَذَا رَوَاهُ أَبْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ عَنْ مَهْرَانَ عَنْ أَبِي سَنَانٍ سَعِيدِ بْنِ سَنَانٍ بِإِسْنَادِهِ مُثْلِهِ .

وقد ذكر ذلك أصحاب المغارى والسير فقال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا قال : لما أجمع رسول الله A المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابا إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله A من الأمر في السير إليهم ثم أعطاهم امرأة زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة وزعم غيره أنها سارة مولاية لبني عبد المطلب وجعل لها جعلا على أن تبلغه لقريش فجعلته في رأسها ثم قتلت عليه قرونها ثم خرجت به وأتى رسول الله A الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام فقال : [أدركنا امرأة قد كتب معها حاطب كتابا إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له من أمرهم] .

فخرجا حتى أدركاهما بالحليفة حليفةبني أبي أحمد فاستنزلها بالحليبة فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئاً فقال لها علي بن أبي طالب : إني أحلف بما كذب رسول الله A وما كذبنا ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك فلما رأى الجد منه قالت : أعرض فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه فأتى به رسول الله A فدعا رسول الله A حاطباً فقال : [يَا حَاطِبُ مَا حَمَلْتَ عَلَى هَذَا ؟ فَقَالَ : يَا رَسُولَهُ إِنَّمَا وَإِنِّي لِمَؤْمِنٍ بِإِنَّ رَسُولَهُ مَا غَيَّرَ وَلَا بَدَلَ وَلَكِنِّي كُنْتُ امْرَأً لِي فِي الْقَوْمِ مِنْ أَهْلِهِ وَلَا عَشِيرَةَ وَكَانَ لِي بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ وَلَدُ وَأَهْلِ فَصَانُتُهُمْ عَلَيْهِمْ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ النَّخَلَةِ : يَا رَسُولَهُ دُعْنِي فَلَا يُضَرُّ عَنْقَهِ إِنَّ الرَّجُلَ قَدْ نَافَقَ فَقَالَ رَسُولُهُ إِنَّهُ مَنْ يَدْرِيكَ يَا عَمِّرُ ؟ لَعْلَهُ قَدْ اطَّلَعَ إِلَى أَصْحَابِ بَدْرٍ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ [اعْمَلُوا مَا شَئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ] .

فأنزل الله D في حاطب { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَخَذُوا عُدُوِّي وَعُدُوِّكُمْ أُولَيَاءَ تَلَقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوْدَةِ } في حاطب بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإنكم أن تؤمنوا بما ربكم إن كنتم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإنكم أن تؤمنوا بما ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيت وما أعلنتكم ومن يفعله منكم فقد ضل سوء السبيل * إن ينقوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تکفرون * لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيمة يفصل بينكم وإنما تعملون بصير * قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين

معه إذ قالوا لقومهم إنا برأء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بما وحده } إلى آخر القصة وروى عمر عن الزهري عن عروة نحو ذلك وهكذا ذكر مقاتل بن حيان أن هذه الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلترة أنه بعث سارة مولاة بنى هاشم وأنه أعطاها عشرة دراهم وأن رسول الله أبعث في أثرها عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما فأدركاهما بالجففة وذكر تمام القصة كنحو ما تقدم وعن السدي قريبا منه وهكذا قال العوفي عن ابن عباس مجاهد وقتادة وغير واحد أن هذه الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلترة .

فقوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوكم وعدوكم أولياء تلقوه إليهم بالمؤودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق } يعني المشركين والكافر الذين هم محاربون للرسول وللمؤمنين الذين شرع الله عذواتهم ومصارفهم ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاقه كما قال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم } وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد وقال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكافر أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين } وقال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن يجعلوا الله عليكم سلطانا مبينا } وقال تعالى : { لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه } ولهذا قبل رسول الله أعز حاطب لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد .

ويذكر هنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا مصعب بن سلام حدثنا الأجلح عن قيس بن أبي مسلم عن ربعي بن حراس سمعت حذيفة يقول : ضرب لنا رسول الله أمثالا واحدا وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر قال فضرب لنا منها مثلا وترك سائرها قال : [إن قوما كانوا أهل ضعف ومسكنة قاتلهم أهل تجبر وعداء فأظهر الله أهل الضعف عليهم فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم فأخططوا الله عليهم إلى يوم يلقونه] وقوله تعالى : { يخرجون الرسول وإياكم } هذا مع ما قبله من التهيج على عذواتهم وعدم موالاتهم لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة الله وحده ولهذا قال تعالى : { أن تؤمنوا بالله ربكم } أي لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين كقوله تعالى : { وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد } وكقوله تعالى : { الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله } .

وقوله تعالى : { إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي } أي إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم فلا توالوا أعدائي

وأعداءكم وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقا عليكم وسخطا لدينكم وقوله تعالى : { تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيت وما أعلنت } أي تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر { ومن يفعله منكم فقد مثل سواء السبيل * إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء } أي لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال { وودوا لو تكفرون } أي ويحرصون على أن لا تنالوا خيرا فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة فكيف توالون مثل هؤلاء ؟ وهذا تهبيج على عداوتهم أيضا .

وقوله تعالى : { لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيمة يفصل بينكم وآن بما تعملون بصير } أي قرابةكم لا تنفعكم عند آن إذا أراد آن بكم سواء ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط آن ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضل عمله ولا ينفعه عند آن قرابتة من أحد ولو كان قريبا إلىنبي من الأنبياء قال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا حماد عن ثابت عن أنس أن رجلا قال : يا رسول آن أين أبي ؟ قال [في النار] فلما قفى دعاه فقال [إن أبي وأباك في النار] ورواه مسلم وأبو داود من حديث حماد بن سلمة به